العلمانية

تعريف العلمانية:

العلمانية: ترجمة خاطئة لكلمة (Secularism) في الإنكليزية، وهي كلمة لا صلة لها بلفظ العلم ومشتقاته على الإطلاق..

والترجمة الصحيحة للكلمة هي (اللادينية) أو (الدنيوية). لا بمعنى ما يقابل (الأخروية) فحسب، بل بمعنى أخص وهو ما لا صلة له بالدين أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد.

وتتضح الترجمة الصحيحة من التعريف الذي تورده المعاجم ودوائر المعارف الغربية للكلمة، تقول دائرة المعارف البريطانية: مادة (Secularism) هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها.

ويقول معجم أكسفورد شرحاً (Secularism):

1 ـ دنيوي أو مادي، ليس دينياً ولا روحياً.

2 ـ الرأي الذي يقول أنه لا ينبغي أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية.

ولذلك نرى أن المدلول الصحيح للعلمانية هو: إقامة الحياة على غير الدين[1].

نشأة العلمانية:

ظهرت العلمانية ابتداء في العالم الغربي وكان لذلك النشوء أسباب وعوامل متعددة أهمها:

---

(1) انظر العلمانية، سفر الحوالي، مكتب الطيب، القاهرة، ط 2، 1999م، ص 20 ـ 23.

1 ـ تحريف المسيحية:

إن المسيحية التي أقرها مجمع نيقية عقيدة رسمية للإمبراطورية الرومانية، تختلف اختلافاً تاماً عن المسيحية الأصلية التي أنزلت على عيسى عليه السلام، فلقد تأثرت بالأديان والوثنيات التي كانت سائدة آنذاك، مما جعلها مزيجاً مركباً غير متجانس، فيه من الأصل الصحيح شيء، وفيه أشياء لم ينزل الله بها سلطاناً كعقيدة التثليث والصلب واعتقاد الوساطة بين الله والناس، وتقديس الصور والهروب من الحياة بالرهبانية التي جعلت أصحابها أعداء للفطرة الإنسانية السليمة مغرقين في القذارة والفقر وازدراء أبسط الحاجات الإنسانية.

واستغلت الكنيسة سذاجة أتباعها وفرضت عليهم عقائد غريبة تحت اسم الأسرار المقدسة، مما أدى بالعقول السليمة في نهاية المطاف إلى الثورة العارمة على تلك العادات المكتسبة، والتي بدأت إرهاصاتها منذ فتح الأندلس ووصول شعاع الحضارة الإسلامية إلى أوروبة وانتهاءً بانهيار الكنيسة.

وكان من أهم أسباب تفتح تلك العقول بدعة (صكوك الغفران) التي اخترعتها الكنيسة لتعينها في حربها على أعدائها (المسلمين)، فكان صك الغفران والنجاة يعطى للمشاركين في الحروب الصليبية، أو لمن يملك ثمن شرائه.

فازدادت الكنيسة بذلك ثراءً وسلطة، وأخذت تبطش وتطغى، ولا أدل على ذلك من محاكم التفتيش، التي كان ضحيتها الأولى من المسلمين الأندلسيين الذين أبيدوا إبادة تامة بأقسى وأشنع ما يمكن أن يتخيله الإنسان من الهمجية والوحدانية[1].

---

(1) الهيثم زعفان، العلمانية الانحلالية ومنظومة القيم الإسلامية، مجلة البيان، العدد 194، ص 47.

ولم يكن ضحاياها من المسلمين فقط.. بل أيضاً من المخالفين من المسيحيين أنفسهم، وخاصةً البروتستانت المجددين (حتى بلغت ضحايا هذه المحاكم الدينية منذ القرن الثالث عشر وحتى القرن الثامن عشر ما يزيد على 9 ملايين نسمة)[1].

إن ذلك كله جعل أصحاب الفكر الحر يشعرون بالمهزلة، خاصة عندما يقارنون بين وضعهم ووضع المسلمين الذين كانوا يعيشون عصورهم الذهبية.

(لقد بدأت الحركات الإصلاحية من داخل الكنيسة نفسها وبأقلام المتدينين أنفسهم أمثال مارتن لوثر وكالفن)[2]. مما زعزع نظامها الداخلي المتماسك (فأغرى من خارجها من منتقديها أن يرفعوا أصواتهم منادين بفصلها عن الحياة)[3].

2 ـ الصراع بين الكنيسة مع العلم:

تتردد كثيراً مقولة (الصراع بين الكنيسة والعلم) ويرددها كثير من مثقفي المسلمين اليوم دون أن يعلموا أن الدين الإلهي الحق لم يدخل هذه المعركة (وأنه لو كان الدين الأوروبي حقاً خالصاً. والعلم الأوروبي يقيناً مجرداً لما حدثت معركة على الإطلاق)[4]. ولذلك كانت المعرفة بين الكنيسة والعلم، لا بين العلم والدين، ذلك لأن الكنيسة بعد تحريفها للدين الصحيح جعلت لنفسها سلطة على كل مجالات الحياة، حتى ما لم يكن من اختصاصها، (فجعلت لبعض النظريات العلمية القديمة قدسية كقدسية النص الإلهي،

(1) محمد كاظم حبيب، مؤامرة فصل الدين عن الدولة، دار الإيمان، بيروت 1974م، ص 19.

(2) المصدر السابق، ص 28.

(3) المصدر السابق، ص 35.

(4) سفر الحوالي، العلمانية، ص 146.

وحاربت من ينتقدها، أو يأتي بجديد عليها وعرضته لمحاكم التفتيش، حتى إن (جاليليه) وبعد ثلاث سنوات من السجن ركع أمام رئيس المحكمة معلناً توبته من القول الإلحادي الخاطئ بدوران الأرض)[1].

لكن خلفاء جاليليه ازدادوا قناعةً بآرائه، ثم بدأت تظهر (مدرسة النقد التاريخي) وهي نظرية ترى أنه يجب أن تدرس الكتب الدينية على النمط نفسه الذي تدرس به الأسانيد التاريخية، أي على أنها تراث بشري وليست وحياً إلهياً وهي لم تعفِ الكتاب المقدس من نقدها.

(ومن ثم جاء الفكر (الطبيعي) المستند إلى النظرية القائلة أنه من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون الحاجة إلى تدخل قوى خارجة عنها. الذي أيده نيوتن بقانون الجاذبية وكان له الأثر الأكبر في الحياة الأوروبية وهو الذي وضع أساس الفكر المادي الغربي)[2].

ثم جاء عصر التنوير، العصر الذي عبد العقل... والطبيعة! وبدأ يسخر من العقائد الكنسية ويعضها تحت دائرة النقد التاريخي والطبيعي... (فبدأت بفكرة الإقرار بوجود إله خالق مع إنكار وحيه أو تحكمه بشؤون البشر، ثم انتهت بفكرة إنكار الله تعالى أصلاً!؟ وكان رواد هذه الطبقة المتنورة من الفلاسفة والأدباء مثل ديكارت وفولتير وروسو)[3].

ولا يخفى عن كل ذي بصيرة الدور الذي لعبه اليهود في ذلك كله، فإبعاد الشعوب عن دينها وإغراقها في المادية الدنيوية من بروتوكولاتهم الأساسية.

---

(1) المصدر السابق، ص 151.

(2) المصدر السابق، ص 156.

(3) محمد كاظم حبيب، مؤامرة فصل الدين عن الدولة، ص 28.

بالإضافة إلى كل ذلك، لعبت نظرية دارون دوراً كبيراً في إحداث شعور بتفاهة الحياة وماديتها، وكانت الضربة القاصمة للكنيسة وسلطتها، ونشرت فكرة أن لا غاية من الخلق وإنما القضية مجرد صدفة؟! لقد كان لهذه النظرية آثار اجتماعية وثقافية خطيرة، اتجهت بعدها أوروبا إلى الابتعاد عن كل ما يتعلق بالغيب أو بهدف الوجود، وأصبحت الحياة الدنيا هي (مبلغهم من العلم)!

الثورة الفرنسية وأفكارها وولادة الفكر العلماني:

أولاً: أسباب اندلاع الثورة:

إن النظام الذي هيمن على الحياة الأوروبية طوال القرون الوسطى هو نظام الإقطاع وهو يأتي في طليعة الأنظمة الجاهلية التي لا ينفك عنها الظلم ولا ينفصم عنها الطغيان، والإنسان في ظله مسلوب الإرادة، مهدر الكرامة، ضائع الحقوق، وكان المجتمع الأوروبي مؤلفاً من طبقتين: الأولى: طبقة السادة الملاك، ورجال الكنيسة، وهي في قمة الترف، والثانية: طبقة العبيد ورقيق الأرض، والزهاد من رجال الكنيسة، وهي في حضيض العوز والفقر.

وقد خلق الله الإنسان رافضاً للظلم، نافراً من الطغيان، منتظراً أدنى فرصة للثورة على ظالميه، وارتبطت أولى محاولات الإنسان الأوروبي للانفلات من المظالم الإقطاعية بالاحتكاك بالمسلمين عن طريق الفتوحات الإسلامية في أوروبة، وبلغ ذلك ذروته إبان الحروب الصليبية، وليس غريباً أن يكون أرقاء فرنسا هم رواد الثورة على الإقطاعيين فإن موقعها الجغرافي المحاذي للجزء المسلم من أوروبا: الأندلس، ثم حملاتها الصليبية الكثيفة، مضافاً إليها البعد النسبي عن مركز البابوية في روما، كل ذلك جعلها أقرب إلى التمرد والانطلاق.

وهكذا قامت في فرنسا أول ثورة فلاحية (الجاكريه) في القرن الرابع عشر للميلاد، وهي وإن أخفقت كالشأن في المحاولات الأولى، فقد هيأت للأذهان إمكان القيام بعمل ناجح مستقبلاً. وكان من العوائق الكبرى التي خيبت جهود الثائرين أن الكنيسة (أكبر الإقطاعيين) وقفت ضدهم وأجهضت محاولاتهم)[1].

وإلى جانب ذلك كله، كانت المذاهب والتيارات الفكرية الجديدة تلعب دورها، خاصة بعد ظهور الورق وأثره في انتشارها... ولما بلغ الفساد السياسي والاقتصادي مداه وازدادت أحوال الطبقات المسحوقة سوءاً، لم يكن للشعب البائس سوى القيام بعمل يزيح كابوس الظلم، ويودي بالطبقات الظالمة المنعمة في ملذاتها والمؤلفة من رجال الدين والأشراف؟! فقامت الثورة الفرنسية عام 1789م كنتيجة طبيعية لكل العوامل السابقة.. ابتداءً بانحراف الكنيسة وظلمها للشعب وانتهاءً بانتشار الفكر اللاديني الذي طبع عصر التنوير، (أضف إلى ذلك ما قامت به القوى الخفية (يهود وماسونية)، فقد عانى اليهود من المسيحيين الاحتقار والازدراء، وكانوا موقنين أن تحقيق أحلام السيطرة على الأمميين لن يتم ما دام في الكنيسة عرق ينبض، فكانوا يتحينون الفرصة للإجهاز عليها وعلى دينها وأخلاقها والسيطرة على أتباعها، واعترف اليهود أنفسهم بأنه كان لهم يد في الثورة وإن لم يكونوا هم صانعوها كما يدعون بغرورهم المعهود)[2].

ثانياً: شعارها وأبرز مطالبها:

(عندما اندفعت الجموع الغوغائية في باريس لهدم سجن الباستيل رمز العبودية والاستغلال لم تكن ترفع سوى شعار واحد هو: الخبز.. والخبز

---

(1) سفر الحوالي، العلمانية، ص 166.

(2) المصدر السابق، من ص 166 ـ 175.

وحده، فقد كان العامل الرئيس في خروجها هو جوعها وجوع أبنائها، وهي لم تكن تفهم أفكار الكتاب العلمانية وفلسفاتهم، لكنها خرجت ضد الكنيسة لما آلت إليه من ظلم واستبداد وثراء فاحش.

إلا أن القوى الخفية كانت تعمل بجد ونشاط، ووجدت الجماهير الغوغائية نفسها تهتف بشعار الحرية ـ المساواة ـ الإخاء. وهو شعار الماسونية ـ وقد لقنت هذا الشعار تلقيناً.. وبرز أيضاً شعار آخر لم يكن الرعاع ليصنعوه، وهو (لتسقط الرجعية) وهي كلمة ملتوية تعني الدين)[1].

ويعترف اليهود في بروتوكولاتهم أنهم وراء شعار (المساواة ـ الحرية ـ الإخاء) الذي رددته ببغاءات جاهلة ـ حسب تعبيرهم ـ (وهم يقصدون بالحرية: تحطيم القيود الأخلاقية، ويقصدون بالإخاء والمساواة تحطيم الحواجز وإذابة الفروق الدينية بينهم وبين غيرهم ليسهل عليهم الإنسلال إلى أجهزة الدولة وتنظيماتها)[2].

ثالثاً: نتائج الثورة:

تمخضت الثورة عن نتائج بالغة الأهمية فقد ولدت لأول مرة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية لا دينية... تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب، وليس (باسم الله) وعلى حرية التدين بدلاً من (الكثلكة)، وعلى الحرية الشخصية بدلاً من التقيد بالأخلاق الدينية، وعلى دستور وضعي بدلاً من قرارات الكنيسة.

(وقامت الثورة بأعمال غريبة على عصرها، فقد حلت الجمعيات الدينية، وسرحت الرهبان والراهبات وصادرت أموال الكنيسة وامتيازاتها، وحاربت

---

(1) سفر الحوالي، العلمانية، ص 173.

(2) المصدر السابق، ص 177.

العقائد الدينية هذه المرة علناً وبشكل واضح بشدة، وأصبح رجل الدين موظفاً مدنياً عند الحكومة)[1].

وعلى الرغم من ذلك... (لا ينكر أن الثورة الفرنسية أحيت الغرب وكانت سبباً لبعثة نهضته العلمية)[2].

تأثر العالم الإسلامي بالعلمانية وأسبابه:

الحديث عن تأخر الأمة الإسلامية وانحطاطها في القرون الأخيرة طويل ومتشعب، ولكن السمة البارزة في ذلك التأخر تلك التي تجعله يتدنى عن مستوى فترات الانحطاط السابقة، هي الانحراف عن فهم الإسلام نفسه، وانحسار مفهوماته التصورية في معان ضيقة ومدلولات محدودة، وهذا الانحراف هو نتيجة وسبب في آن واحد.

وأهم مظاهر انحراف المسلمين قد تجلت على مستويين:

أولاً: الانحراف في مفهوم الألوهية:

غفل المسلمون عن قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ سورة الأعراف: 3.

وبذلك صرفوا هذا النوع من العبادة إلى الحكام والولاة وعلماء المذهب المتعصبين، ومشايخ الطرق الصوفية، إضافة للمشعوذين الذين تهيأ لهم الجو بما كان يسيطر على الأمة الإسلامية من جهل وسذاجة، وقد كانت ثلاث دول تتقاسم العالم الإسلامي، وهي الدولة المغولية في الهند، والدولة الصفوية في فارس، والعثمانية في بلاد حوض البحر المتوسط.

---

(1) المصدر السابق، ص 169.

(2) محمد كاظم حبيب، مؤامرة فصل الدين عن الدولة، ص 89.

بالنسبة للدولة الصفوية يمكن القول أنها كانت منحرفة انحرافاً يجعل انتسابها للإسلام اسمياً فقط فقد كانت شيعية رافضية، وكان الحكم فيها على أهواء علماء الشيعة المتعصبين (وليس العلماء المعتدلين).

أما الدولة المغولية فكانت ـ باستثناء بعض الملوك ـ جاهلة بحقيقة الإسلام، وكان فهمها مختلطاً بكثير من الانحرافات والتصورات الخاطئة، هذا الجهل ـ إضافة إلى كون المسلمين أقلية في الهند ـ جعل إلغاء الشريعة من قبل الإنكليز لا يقابل بكبير معارضة.

أما الدولة العثمانية فعلى الرغم من أنها أصلح الدول الثلاثة عقيدة وسلوكاً، فإنها كانت بعيدة عن منهج الخلافة الراشدة بعداً يزداد أو يقل حسب نوعية خلفائها.

(ولا نستطيع أن ننكر مآثر الدولة العثمانية ومزاياها التي تستحق الثناء والتقدير فهي التي أحيت المد الإسلامي في أوروبا الشرقية بعد أن فقد المسلمون بلادهم في أوروبا الغربية بسقوط الأندلس، غير أن تلك المآثر لم تجنب الدولة العثمانية الاستمرار في خط الانحراف الذي ورثته عن أسلافها، ثم الزيادة فيه بحسن نية ودون وعي.

ومن مظاهره أن الدولة كانت تتبنى عملياً المذهب الحنفي بتعصب مر، وعارض علماؤهما فتح باب الاجتهاد الذي أغلق منذ القرن الرابع)[1].

ثانياً: الانحراف في مفهوم الإيمان بالقدر:

(لقد كتب أحد المستشرقين الألمان وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم الأخيرة: طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله والرضا بقضائه

(1) سفر الحوالي، العلمانية، ص 508 ـ 515.

وقدره، والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار. وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان:

في العصر الأول لعبت دوراً كبيراً في الحروب إذ حققت نصراً متواصلاً لأنها دفعت الجندي إلى روح الفداء، وفي العصور الأخيرة كانت سبباً في الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي فقذف به إلى الانحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية)[1].

وليس من شأننا الآن مناقشة هذه الأفكار وإنما هدفنا أن نعرضها بإيجاز بالغ لنصل إلى النتيجة وهي أن (هذا الانحراف في التصورات الإسلامية كان المنفذ الذي تسربت منه العلمانية كإحدى مظاهر الغزو الفكري لتقول للناس أن الدين لا علاقة له بالحياة. وإنما هو رابطة قلبية بين العبد وربه يستحق بها النجاة والفوز في العالم الأخروي)[2].

(صحيح أن العلمانية فكرة أجنبية وفدت إلينا مع الاستعمار ودعمت بأذياله، لكن شيئاً من ذلك ما كان ليحدث لولا أننا مصابون بما أسماه مالك ابن نبي (قابلية الاستعمار)[3].

انبهار بعض المثقفين المسلمين بالحضارة الغربية:

مما لا شك فيه أنه كان للثورة العلمية التي عاشتها أوروبا صدى في جميع أنحاء العالم، والمذاهب الفكرية التي سادت الثورة الفرنسية بدأت تجد آذاناً صاغية لدى المتذمرين من أحوال أقطارهم وتخلفها ومن ذلك المشرق الإسلامي كله.

---

(1) باول شمتز، الإسلام قوة الغد العالمية، ت د. محمد شامية، القاهرة 1394هـ، ص 78.

(2) سفر الحوالي، العلمانية، ص 522.

(3) مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، بيروت، لا تاريخ نشر، ص 13.

لقد انعكست أفكار الثورة الفرنسية انبهاراً أو إعجاباً لدى كثير من المسلمين، بل وشكلت لديه عقدة نقص لازمته فترة طويلة وفرضت عليه سكتة عقلية فحاول الكثير المقاربة بين الإسلام، والنظم الأرضية، والنظريات، والفرضيات محاولة منهم لعدم الانسلاخ من الهوية، وفراراً من الواقع الثقافي والاجتماعي المسيطر والذي أدى إلى جمود النشاط العقلي للأمة الإسلامية.

ولقد كان للبعثات العلمية التي قام بها محمد علي باشا في عهده لتطوير التعليم أثرها في عودة أولئك المفكرين مبهورين بالحضارة الإسلامية الغربية ومنهم شيوخ أجلاء، ونرى مثالاً لذلك رفاعة الطهطاوي في قوله: (ما يسمى عندنا علم أصول الفقه يسمى عندهم الحقوق الطبيعية، وهو عبارة عن قواعد عقلية تحسينية وتقبيحية، وما نسميه العدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية، وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولع بحمايته يسمونه محبة الوطن)[1].

ومن أوضح الأمثلة على تأثر المسلمين بالغرب وتقبلهم للفكر الدخيل ما نراه في كلام إمام كالأفغاني، في محاولة لعلها الأولى في التاريخ الإسلامي للتقريب بين الإسلام، والمذاهب البشرية الوضعية: (وهكذا دعوى الاشتراكية... وإن قل نصراؤها اليوم، فلا بد أن تسود العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح، ويعرف الإنسان أنه وأخاه من طين واحد، وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع، والاشتراكية هي ملتحمة بالدين الإسلامي ملتصقة في خلق أهله منذ كانوا بداوة وجاهلية، وأعظم المحرضين على الاشتراكية من أكابر الصحابة)[2].

---

(1) رفاعة الطهطاوي، المرشد الأمين، مصر، 1289هـ، ص 36 ـ 38.

(2) علي الحوافظة، الاتجاهات الفكرية السياسية والاجتماعية، بيروت 1972م، ص 112.

ويقول أحد المتأثرين به وهو عبدالله النديم (إن الشورى لا تنجح في الشرق لأن الشرقيين غير عقلاء، وإنما ثار الغربيون على الشورى حتى تربت الملكات وتصورت المطالب أمامهم بصور الواقعيات)[1].

وكذلك الشيخ محمد عبده يستحسن الأنظمة الجمهورية النيابية معتقداً أنها الوسيلة الحديثة للشورى الإسلامية، فيقول: (المبايعة لا تتوقف صحتها على الشورى ولكن قد يحتاج فيها إلى الشورى لأجل جمع الكلمة على واحد ترتضيه الأمة، فإن أمكن ذلك بغير تشاور بين أهل الحل والعقد كأن جعلوا ذلك بالانتخاب المعروف الآن في الحكومة الجمهورية وما في معناه حصل المقصود)[2].

وإنما نورد هذه الأقوال لغرض واحد وهو انبهار الأمة الإسلامية بالغرب ونظمه، واستعدادها الذاتي للتلقي عنه تلقياً تدل عليه الشواهد وغيرها، وهؤلاء وأمثالهم تطوعوا بتسويغ النظم اللادينية في أمتهم، وهيؤوا النفسية الإسلامية لتقبلها مندفعين بدوافع نفسية ذاتية.

رواد الفكر العلماني في العالم الإسلامي:

من أهم القضايا التي يجدر الانتباه إليها أن الانحراف غير المقصود قد بدأ من منطلق التخلص من جمود الفقه الإسلامي أمام المتغيرات الحيوية، ومن توهم المسلمين أن سبب تخلفهم هو عجزهم التنظيمي والإداري. وأن محاكاة أساليب الحياة الغربية جديرة بالقضاء على ذلك التخلف. وعلى هذا الأساس قامت الحركة المسماة (حركة الإصلاح) في جناحي العالم الإسلامي تركية ومصر.

---

(1) المصدر السابق، ص 104.

(2) علي الحوافظة، الاتجاهات الفكرية السياسية والاجتماعية، ص 100.

هذه السذاجة عند منفذي الإصلاح الأوائل أصبحت عند الشباب الـذين تلقوا دراستهم في أوروبا فكرة واعية ومبدأ مرسـوماً، ومـن ثـم أصـبح مفهـوم الإصلاح هو نبذ الإسلام والتمسك بركاب أوروبـا الكـافرة.وسرت في قلـوب أولئك روح التفرنج، وتطور الأمر حتى نشأت حركات ثورية تطالب بالإصلاح الداخلي. ولا غرابة أن تكون اليد الطولى في هذه الحركـات لأولئـك التلمـوديين الذين وسعتهم سماحة الإسلام في حين ضيقت عليهم إسبانيا النصرانية[1].

واستمر الحال كذلك حتى استلم الحكـم مـصطفى كـمال وقـام بإلغـاء الخلافة الإسلامية، وفرض النموذج الغربي للحياة في جميع المناحي، حتـى أنـه تدخل في لبس الطربـوش وفـرض بـدلاً عنـه القبعـة الغربيـة، وفـرض بقـوة السلاح المسخ الفكري. وحطـم بـصورة اسـتبدادية مظـاهر الحـشمة والحيـاء الإسلامي.

وأما مصر فبدأت بالاصطباغ بالصبغة الأوروبية منـذ أيـام محمـد عـلي، وكان الخديوي إسماعيل مفتوناً بالغرب، ومهـدت سياسـته الفاشـلة لتـدخل بريطانيا في شؤون مصر ثم احتلالها نهائياً.

كان زعيم الإصلاح في مصر هو الشيخ محمد عبده الـذي أثـاره تقـدم الغرب وتخلف المسلمين في كـل ميـدان، فهـب يـدعو إلى الإصـلاح متـأثراً بأستاذه جمال الدين أفغاني، ولم يجد حرجاً مـن اقتبـاس القـوانين التـشريعية الغربية ما دام ذلك يحقق الإصلاح في نظره؟! كما أن إعجابه بالثقافة الغربية هو الذي جعله يبالغ في انتقاص الأزهر مطلقـاً عليـه لفـظ (الاصـطبل) أو (المارستان).

---

(1) محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، بيروت 1970، ص 78.

حقيقة أن الرأي العام الإسلامي ثار على بعض فتاويه التي أباح بها موالاة الكافرين، وإباحته لفوائد البنوك. وأخيراً فإن الشيخ ـ بقصد وبدون قصد ـ قد أوجد القاعدة التي ارتكز عليها من يسمون دعاة الإصلاح للتعلق بأذيال الغرب وإقصاء الإسلام عن توجيه الحياة.

وكان ممن ادعى أنه من دعاة الإصلاح طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي الذي طعن فيه في عقائد المسلمين، حيث شكك في النص القصصي القرآني عن الأنبياء والكعبة، وتساءل عن السبب الذي يدعونا إلى عدم اعتبارها من أساطير الأولين؟ وأن في القرآن أسلوبين مختلفين أحدهما جاف، وهو مستمد من البيئة المكية، ولما هاجر النبي إلى المدينة تغير الأسلوب بحكم البيئة أيضاً، فقد كان في المدينة طوائف اليهود فأصبح ذلك الخطاب ليناً وديعاً مسالماً، تلوح عليه إمارات الثقافة والاستنارة.

والكتاب الثاني (مستقبل الثقافة في مصر) دعا فيه المسلمين إلى الأخذ بحضارة الغرب حلوها، ومرها ما نريده منها وما لا نريده.

يقول فيه: (ولو أن الله عصمنا من الفتح العثماني لاستمر اتصالنا بأوروبا ولشاركناها نهضتها، ولتغير وجه العالم... نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة يوماً بعد يوم حتى نصبح جزءاً منها، لفظاً ومعنىً، حقيقة وشكلاً)[1].

ومثل طه حسين سلامة موسى الذي يقول متحدثاً عن نفسه: (إنه شرقي مثل سائر مواطنيه لكنه ثار على الشرق عندما أيقن أن عاداته تعوق ارتقاءه)[2].

---

(1) محمد إبراهيم مبروك، مواجهة المواجهة، ص 180.

(2) سلامة موسى، الأدب للشعب، مصر 1961م، ص 131.

ثم جاء بعد ذلك أستاذ الجيل ـ كما أسموه ـ محمد لطفي السيد الذي كان أحد تلاميذ محمد عبده وهو أول من فاوض «كتشنر» على أن تنفصل مصر عن تركية وتصبح دولة مستقلة[1]. (وأما فكره فكان متأثراً إلى درجة كبيرة بداروون وجاك روسو من الغربيين وكان مع كل من دعا إلى التفرنج والعصرية. فقد حظيت دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة بتأييد لطفي السيد أكثر من أي كاتب أو صحفي.

وذكر مؤرخ حياته حسين النجار أنه كان لا يؤمن بالغيبيات والقوى الخفية)[2] وعلل تأخر مصر وتقدم الغرب بأن مصر لها لغتان: لغة للثقافة ولغة للتخاطب، والحل الذي رآه (هو النزول بالفصحى إلى مستوى العامية حتى يتم توحيد اللغتين في لغة واحدة مع الزمن هي العامية)[3].

ثم فشت بعد ذلك بين العلمانيين ظاهرة الإلحاد والجهر به في المجتمع المسلم، ومنهم «إسماعيل أدهم» الذي جاء إلى مصر من تركية وحاول نشر الإلحاد وذلك برسالة: لماذا أنا ملحد. ووجدت بعض المذاهب الفكرية الأدبية طريقها إلى الشرق، فالروسية وجدت طريقها في روايات جرجي زيدان التي شوه بها التاريخ الإسلامي ليحاكي الرومانسيين الإنجليز (قد أسهمت وسائل الإعلام التي يدير معظمها العلمانيون إسهاماً قوياً في تنمية الاتجاه الإباحي، كما في كتابات إحسان عبد القدوس في النثر ونزار قباني في الشعر)[4].

---

(1) سفر الحوالي، العلمانية، ص 605.

(2) حسين النجار، أحمد لطفي السيد، ص 187.

(3) علي وافي، فقه اللغة، القاهرة 1388هـ، ص 184.

(4) سلامة موسى، الأدب للشعب، مصر 1961م، ص 131.

العلمانيون المعاصرون وأشهر أفكارهم:

إذا كان من ذكرنا من الإسلاميين قد تطوعوا بتسويغ النظم اللادينية في أمتهم، وهيؤوا النفسية الإسلامية لتقبلها، مندفعين بدوافع نفسية ذاتية، فقد جاء بعدهم أناس مغرضون صرحاء، اتخذتهم القوى المعادية للإسلام أصابع لمخططاتها ومعاول لهدم الكيان المادي ـ المعنوي للأمة الإسلامية. ومن هؤلاء:

1 ـ **صادق جلال العظم**: ملحد سوري من أصل تركي يدين بالفكر الشيوعي البائد، ولد في دمشق 1934م، يعترف العظم أنه نشأ في بيئة علمانية متحررة لا تعرف الأحكام الدينية ولا ينفذها كما ذكر في كتبه، درس الفلسفة وكانت رسالته عن الفيلسوف (كانت) عمل في الجامعة الأمريكية ببيروت ثم أستاذاً بجامعة عمان 1968م، ثم باحثاً في مركز الدراسات الفلسطيني، ثم عاد إلى دمشق وتولى رئاسة قسم الفلسفة جامعة دمشق.

اعتنق الفكر الشيوعي وجهر بإلحاده في كتابه (نقد الفكر الديني) عام 1969 الذي خلاصة زعمه أن الدين (لا سيما الإسلام) يناقض العلم الحديث، ويعقد في كتابه فصلاً خاصاً عن إبليس ويدافع عنه (مأساة إبليس)، ردد فيه شبهات إبليس التي نقلتها بعض الكتب السابقة في اعتراضه على القدر مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني.

ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية قال في الفتاوى «هذه المناظرات بين إبليس والملائكة التي ذكرها الشهرستاني في أول المقالات ونقلها عن بعض أهل الكتاب ليس لها إسناد يعتمد عليه».

ورد عليه من العلماء: الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة في كتابه «صراع مع الملاحدة حتى العظم» وكذلك الشيخ عبد اللطيف فرفور في كتابه «تهافت

الفكر الجدلي». والأستاذ جابر حمزة فراج في كتابه «الرد اليقيني على كتاب نقد الفكر الديني».

2 ـ **المستشار محمد سعيد العشماوي**: هو رئيس محكمة الجنايات ومحكمة أمن الدولة العليا بمصر، تخرج من كلية الحقوق عام 1955م، ثم عمل بالقضاء بمحاكم القاهرة، عمل بالتدريس محاضراً في كلية أصول الدين والشريعة والقانون في عدة جامعات منها: الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وجامعة أرسيا بالسويد، ومعهد الدراسات الشرقية في لينينغراد، وجامعة السوربون بفرنسا.

بدأت كتاباته الشرعية بكتابه (أصول الشريعة) 1980م، ثم كتابه (الربا والفائدة في الإسلام)، ثم توالت كتبه الأخرى (الإسلام السياسي)، (جوهر الإسلام) (الشريعة الإسلامية والقانون المصري)، (معالم الإسلام).

ـ يعد العشماوي من دعاة فصل الدين عن الدولة، وتحوي كتبه التشنيع على نظام الحكم الإسلامي، والتهجم على دعاة تطبيق الشريعة (إن تدين السياسة من أعمال الفجار أو الأشرار، وتاريخ الإسلام تاريخ قمعي دموي يدور على الصراع بين القبائل والفرق والأجناس، والفقه الإسلامي خال من أي نظرية إسلامية وصفر من أي نظام سياسي متكامل). ويطرح نفسه كاتباً إسلامياً مستنيراً يقف في وجه الظالمين على حد زعمه.

وتولى المفكرون الإسلاميون الرد عليه، فأشهرهم الدكتور محمد عمارة في كتابه (سقوط الغلو العلماني)، والدكتور عمر عبدالله كامل في كتابه (قراءة نقدية في أفكار العشماوي)، والدكتور المفكر صلاح الصاوي في كتابه (تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية)، وكذلك الشيخ الشعراوي في (الأنوار الكاشفة).

3 ـ **فرج فودة:** مواليد الزرقاء ـ دمياط 1945م ـ حصل على بكالوريوس الزراعة 1967م، ثم حصل على الدكتوراه في الفلسفة في الاقتصاد الزراعي من عين شمس عام 1981م، عمل مدرساً بجامعة بغداد ثم خبيراً اقتصادياً في بيوت الخبرة العالمية، ثم أصبح يدير (مجموعة فودة الاستثمارية). كان يدعو للتعايش مع إسرائيل وبدأ هو بنفسه في التعامل بالاستيراد والتصدير، وضع نفسه أمام الرأي العام أنه ضد إقامة الدولة الإسلامية وتطبيق الشريعة، وكان ذلك واضحاً في مناظرته مع الدكتور (محمد أحمد خلف الله) في معرض الكتاب عام 1982م. وفي مواجهة الشيخ محمد الغزالي، والمستشار مأمور الهضيبي، والدكتور محمد عمارة.

ومن مؤلفاته: الملعوب ـ قبل السقوط ـ الحقيقة الغائبة ـ النذير ـ الإرهاب. وتوالت ردود العلماء عليه وأهمها:

1 ـ عبد المجيد حامد صبح في كتابه (تهافت قبل السقوط وسقوط صاحبه).

2 ـ منير شفيق في كتابه (بين النهوض والسقوط).

3 ـ مفرح القوسي في كتابه (المنهج السلفي والموقف المعاصر منه).

4 ـ **د. جابر عصفور:** (المسؤول الأول في المجلس الأعلى للثقافة في مصر، وهو المشرف على أهم الندوات العلمية والنقدية والفكرية التي تعقد في العالم الغربي اليوم قاطبة، له كتاب «نظريات معاصرة»، «تنوعنا الخلاق».

ولا تتعدى صولاته الفكرية وقدراته الإبداعية نطاق الفكر الغربي الذي تأثر به وتمرس داخل حدوده وهو يدافع عن الفكر العلماني ورواده من بعض المثقفين العرب الذين يقدحون في الوحي والشريعة والعقيدة والقيم والمبادئ الإسلامية[1].

---

(1) طارق منينة، أقطاب العلمانية، دار الدعوة، ص 117.

وهو يؤكد أن (النص على أن الإسلام دين الدولة قد فرق بين المسلمين المصريين وأنشأ في مصر قوة سياسية دينية تؤيد الرجعية وتجر مصر جراً عنيفاً إلى الوراء)[1].

ولقد تصدى للرد على فكره ونقد شبهاته عدد من العلماء على رأسهم الدكتور محمد عمارة، والباحث طارق منينة حيث فند شبهاته وتوقف عند كل منها بالرد والتمحيص، مبيناً زيف أفكاره ومنابعها الغربية في كتابه أقطاب العلمانية في العالم العربي والإسلامي.

5 ـ **أدونيس**: (أحمد سعيد علي شاعر سوري معروف في الأوساط الفكرية والشعرية في عالم الشرق والغرب وهو امتداد للشعراء الإباحيين، كما هو امتداد للمنظومة الفلسفية الغربية التي تستمد معاييرها من سلطة البشر واستقلالية الإنسان. هذه الرؤية الكونية لا تعتمد على المرجعية الدينية أو العقائد الإيمانية وإنما هي رؤية علمانية حديثة هدفها تهجين الأفكار والتقاليد)[2]. ومما يدعو للريبة في المدعو أدونيس رسالته التي أعدها لنيل الدكتوراه تحت عنوان الثابت والمتحول بحث في الإبداع والاتباع عند العرب قدم فيها تشويهاً لوقائع التاريخ الإسلامي، وقدم دراسته عن الخلافة ومفادها أن تولية أبي بكر الصديق للخلافة، تأسس والنبي يحتضر في مناخ اقتتال بل يمكن القول إنها تأسست بمبادرة شبه انقلابية، أي بشكل من أشكال العنف الأقوى، وكان المشرف على الرسالة نصرانياً، وقد ترشح أدونيس من قبل دوائر الاستشراق لنيل جائزة عالمية بوصفه شاعراً ومفكراً إسلامياً ثائراً

(1) محمد إبراهيم مبروك، مواجهة المواجهة، ص 235.

(2) مقالة لأدونيس بعنوان «الأرض هذه الجنة الضائعة»، جريدة الحياة، الثلاثاء 1998م.

ويدعو إلى نقد القرآن (وهو النص الديني الأول الذي أسس على الذاكرة العربية ـ كما يدعي ـ.

ولقد تولى الرد على ذلك الهراء والسخف الأستاذ أنور الجندي في كتابه شبهات التغريب الذي يقول فيه: كل حضارة تبدأ من نقطة التحرر والانقلاب من الضوابط والقيم الأخلاقية لابد أن تنهار وتتمزق)[1].

6 ـ **محمد أركون**: مفكر جزائري حصل على الدكتوراه من السوربون، وهو من عبيد السوربون وأفكاره، يحتذي طريقة أستاذه (ميشيل فوكو) في التحليل التفكيكي كما ينتمي إلى المدرسة الاستشراقية في طريقة تعرضه ودراسته للإسلام وعلومه. ويصرخ بجرأة بأنه أحد رواد الفكر العلماني وذلك تحت عنوان «نحو ممارسة علمانية للإسلام»، ويدعونا فيها إلى النقد المستمر للدين والشريعة والتراث الإسلامي، وأنه كما نَقد فيتشر المسيحية لابد لنا من نقد الإسلام والألوهية والوحي والشريعة[2].

وهو لا يقتصر على نقد الأحاديث والتفاسير، ولا يكتفي بتفكيك المنظومة الفقهية، بل يتوغل في نقده وصولاً إلى الأصل الأول وهو القرآن الكريم ـ الوحي الإلهي: ولقد قال في حلقة دراسية دولية للدبلوماسيين: (إننا نهدف إلى قلب المنهجية التي تنطلق من الدين)[3].

عين مديراً لمعهد الدراسات الإسلامية والعربية في السوربون بفرنسا.

ولعل خير من تصدى لهذا الفكر الأستاذ فهمي هويدي في كتابه المقالات المحظورة وكتاب عن العلمانية وتجلياتها.

---

(1) سليمان الخراشي، دراسة شرقية لفكر منحرف، موقع صيد الفوائد.

(2) طارق منينة، أقطاب العلمانية، دار الدعوة، ص 151.

(3) طارق منينة، أقطاب العلمانية، دار الدعوة، ص 153.

7 ـ د. **محمد شحرور**: مهندس سوري، خريج الاتحاد السوفييتي، حاول تفسير القرآن الكريم بشكل عصري عقلاني في كتابه الذي أصدره مطلع التسعينات من القرن الماضي، متأثراً فيه بفكر أستاذه جعفر دك الباب، أستاذ اللسانيات الذي تتلمذ على يد عالم اللسانيات السوفياتي خراكوفسكي، الذي يحمل شهادة دكتوراه باللغة العربية. حاول الشحرور تطبيق قواعد الجرجاني في اللغة العربية. حول الثابت والمتغير وأن النص القرآن يخضع للمرحلة الزمانية والمكانية، وأن فهم الصحابة والسلف للقرآن غير ملزم، وأن التفسير النبوي للقرآن الكريم فهم خاص به ﷺ، وبتطبيقه لقواعد أستاذه السوفياتي للغة العربية خرج بأحكام فقهية غريبة، منها أن لا عورة للمرأة أمام محارمها وأن العورة من باب العيب وليس من باب المحرم. كما أنكر حجية السنة في الأحكام الشرعية، وأنها محكومة بالزمان التي وجدت فيه وأهله.

ولقد انبرى للرد عليه لغوياً الأستاذ يوسف الصيداوي في كتابه بيضة الديك، ورسالته العربية بين خراكوفسكي ودك الباب، وفند آراءه الشاذة بمقاييس اللغويين. كما كتب الأستاذ المحامي منير الشواف كتابه تهافت القراءة المعاصرة، والذي تتبع فيه أفكار الدكتور شحرور في كتابه الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ورد على شبهاته تفصيلاً، كما وضح الأستاذ محمد صياح المعراوي حقيقة هذا المنهج وأهم أفكاره في كتابه الماركسلامية والقرآن.

8 ـ **عبد الرحمن الشرقاوي**: وهو اشتراكي ماركسي النزعة في أوائل الستينات، ثم اتجه إلى الإسلام يدرسه ليسقط عليه وعلى تاريخه المعايير الماركسية، يقول في كتاب رأيهم في الإسلام: (إن التعاملات المصرفية كلها

حلال، والاستفادة من الفائدة عمل مشروع وليس ربا لأنه لا يتعارض مع أحكام الشريعة)[1].

ويرى أن النبي هدم الأصنام ليس لسبب شرعي وإنما لسبب مادي ليقطع الطريق على التجار والمرابين،ويرى أن الصحابة كانوا أميل إلى تطبيق الاشتراكية الماركسية، وأن عثمان وعلي وعمر اتفقوا على أن يعيدوا توزيع الثروة على المسلمين، ويتهم الصحابة في نياتهم مركزاً على عائشة، ويشير إلى انتقاص حق علي في الخلافة.

تأثر بعض الإسلاميين بالفكر العلماني:

إذا كانت العلمانية في بداياتها قد تذرعت بالعلم وآثاره ومناهجه فإنها من هذا الباب اتكأت على قضية (العقلانية) ـ وهي طريقة في التفكير تعني الحركة الاستدلالية التي ينتقل بها الذهن في مقدمة إلى نتيجة ـ: إن القرآن الكريم يطالب الإنسان بالاحتكام إلى العقل حتى أن مادة عقل قد ذكرت في القرآن أكثر من خمسين مرة، ولعل العقلانية كانت هي الباب الذي استطاع أن ينفذ منه الفكر العلماني إلى عقول كثير من رجالات الشريعة الثائرين على أوضاع بلادهم الفكرية والواقعية، وإلا كيف تستطيع العلمانية مع مناقضتها الواضحة للفكر الديني التسرب لعقول دعاة كبار أمثال محمد عبده.

ابتدأ محمد عبده عمله الإصلاحي بمهاجمة الأزهر ونقد الحياة الاجتماعية، ولا شك أن الأزهر كان بحاجة للإصلاح، لكن الإصلاح الذي يريده الإنجليزي كان من نوع آخر غفل عنه الشيخ، لقد كان من خطط

(1) سليمان الخراشي، العصرانيون وظاهرة نقض أصول الشريعة.

الإنكليز للقضاء على الشريعة إنشاء مجلس شورى القوانين الذي كانوا يحكمون مصر من خلاله.

لم يكن محمد عبده علمانياً، ولكن أفكاره تمثل بلا شك حلقة وصل بين العلمانية الأوروبية والعالم الإسلامي، ولذلك باركها المخطط الصليبي اليهودي، وأما الجماهير الإسلامية فقد اتخذت أفكار الشيخ الإصلاحية مبرراً نفسياً لتقبلها للتغيير العلماني المتدرج في الدول العربية.

ويلاحظ من تفسيره أنه يميل مع ما يتناسب مع المعارف الغربية السائدة في عصره، فهو يفسر الطير الأبابيل بأنها جراثيم الجدري يحملها نوع من الذباب، ويقول عن منهجه في التفسير في كتابه الإسلام والنصرانية: (الأصل للإسلام النظر العقلي لتحصيل العلم، وهو وسيلة الإيمان... والأصل الثاني للإسلام تقديم العقل على النقل).

غير أنه وبعد الشيخ محمد عبده وجد من رجالات الأزهر من أضحى ينادي صراحة بالفكر العلماني وضرورة فصل الدين عن الحياة.

وأول النقاط التي أثير حولها الخلاف كانت مبادئ الإسلام في قضية الحكم وإدارة الدولة فقد خرج أزهري بفكرة غريبة مريبة كان لها الفضل في تخفيف الوطأة لما خلعه أتاتورك على مشاعر المسلمين، ذلك هو الشيخ علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم».

لقد جمع عبد الرازق في كتابه بين أسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة واقتطاع النصوص وتلفيق الواجبات وبين طريقة الباطنية في التأويل البعيد، وسرد نبذاً من سير الطواغيت، وعمد إلى مغالطات عجيبة كل ذلك ليدلل على أن الإسلام كالمسيحية المحرفة علاقة روحية بين العبد وربه لا

صلة لها بواقع الحياة، ودلنا في كتابه على أحد مراجعه الأساسية وهو السير توماس أزيلد[1].

وقد كان لهذا الكتاب آثار بعيدة فقد ترجم إلى عدة لغات وأصبح مرجعاً معتمداً للدراسات الإسلامية في الغرب، وأما الكتب التي ألفت للرد عليه فقد حاصرتها الدوائر الاستعمارية وأهملتها وسائل الإعلام.

ومن بين من تأثر بفكرة فصل الحكم عن الإسلام الكاتب خالد محمد خالد في كتابه من هنا نبدأ، هادفاً إلى ما قصد علي عبد الرازق من قبل ولكن بأسلوب أذكى وأحدث، ولقد تولى الرد عليه الشيخ محمد الغزالي في كتابه من هنا نعلم.

وأما الشيخ محمود أبو رية أحد طلاب محمد عبده النجباء، فقد سخر من أهل الحديث والسنة في كتابه أضواء على السنة المحمدية، وزعم أنه بذل مجهوداً كبيراً في دراسة مصادر السنة الصحيحة، حتى انتهى إلى نتائج عجيبة خطيرة، وقال في كتابه: (لو أن الصحابة فعلوا في تدوين حديث رسول الله كما فعلوا في تدوين القرآن لجاءت هذه الأحاديث على غير ما هي عليه الآن، فتكون كلها متواترة، ليس فيها شيء اسمه الصحيح والضعيف).

وقد تولى الرد عليه محدث اليمن الشيخ محمد المعلمي اليماني، مبيناً أن شبهاته مخالفة لصحيح المنقول وصريح المعقول.

(ومن قبل كان الشيخ عبد المتعال الصعيدي يحاول هدم الحدود الإسلامية المستقرة في الكتاب والسنة زاعماً أن الأمر بها للندب لا للوجوب، وأن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم إلى آخر هذا اللغو المتهافت)[2].

---

(1) سفر الحوالي ـ العلمانية ـ ص 582.

(2) محمد الغزالي، من هنا نعلم، مصر 1373هـ، ص 584.

ونادى المتحررون من علماء الأزهر أن الوسيلة المثلى للخروج من أزمة مصر هي تطوير الأزهر، أي أن يفقد رسالته في الاحتفاظ بوجوده.

وصدرت القوانين عام 1936م حتى سنة 1961م بشأن تطوير الأزهر، واستطاع دعاة اللادينية أن يُدخلوا تاء التأنيث على الجامع الأزهر، وبذلك تحول إلى مركز ثقافي عصري مدني؟!![1].

وسرت هذه اللوثة الفكرية في العالم الإسلامي، ففي لبنان جاء الشيخ عبدالله العلايلي مفتي جبل لبنان، وقدم كتاباً بعنوان أين الخطأ؟؟ يريد فيه تصحيح بعض الأخطاء من وجهة نظره!! مثل إباحة التعامل المصرفي، وإنه لا رجم في الإسلام ولا قطع ولا جلد إلا بعد معاودة الجريمة وتكرارها، ودعا إلى صهر المذاهب الفقهية في بوتقة واحدة وذلك بالتسليم بكل ما قالت المدارس الفقهية على اختلافها وتناكرها حتى الضعيف منها، بقطع النظر عن أدلتها...

ثم يقول: (والمرجح هو الظرف فقط ما دمنا قد سلمنا بأقوال الفقهاء جميعاً، وما هجرناه اليوم من قول في مسألة ما ثم اقتضاه الظرف بعد حين نعمد إلى ترجيحه والأخذ به)[2].

ومن العلماء المعاصرين الأزهريين الذين تأثروا بفكرة العلمانية د. خليل عبد الكريم، وهو ماركسي مصري نال شهادة الدكتوراه من جامعة الأزهر، وهو يدعو إلى اليسار الإسلامي ومعظم كتاباته حول التاريخ الإسلامي. ومن مؤلفاته:

---

(1) سفر الحوالي، العلمانية، ص 603.

(2) سليمان الخراشي، العصرانيون وظاهرة نقض أصول الشريعة، ص 23.

النص المؤسس ـ شدو الربابة في معرفة أحوال الصحابة ـ فترة التكوين في حياة الصادق الأمين ـ الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية ـ الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية.

وأهم أفكاره أنه يحاول أن يثبت أن القرآن نص تاريخي جدي وليس وحياً سماوياً، وإنما هو من اختراع محمد (ﷺ) فهو نص يخضع للمرحلة التاريخية التي أنتج فيها، ثم إن القرآن مع تاريخيته لم ينتج كنص كامل منذ الوهلة الأولى، وإنما تأثر بالظروف التي كانت تمر بمجتمع النبي (ﷺ) فهو نص جدلي تناله التغيرات بالزيادة والنقصان تبعاً للمواقف التي كان يواجهها النبي منتج القرآن؟!

ويقدم عبد الكريم أدلة على دعواه ببشرية مصدر القرآن متلخصة في أسباب النزول، فالقرآن ينزل حسب الطلب على حد تعبيره؟!

وقد قام بالرد على جميع كتبه د. إبراهيم عوض أستاذ النقد الأدبي بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس وذلك في كتابيه.

ـ اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله ورسوله وعلى الصحابة.

ـ لكن محمداً لا بواكي له.

ومن الإسلاميين المعاصرين الذين تأثروا بهذا الفكر ـ وللأسف ـ الدكتور الحقوقي حسن الترابي، زعيم الحركة الإسلامية في السودان، الذي يقول في كتابه تجديد الفكر الإسلامي: (من المعوقات أنه هناك من يقول أنه عندنا ما يكفينا من الكتاب والسنة، وهذا وهم شائع، إذ لابد أن ينهض علماء فقهاء، فنحن بحاجة إلى فقه جديد لهذا الواقع الجديد)[1].

(1) سليمان الخراشي، العصرانيون وظاهرة نقض أصول الشريعة، ص 20.

ونقل الأستاذ سرور زين العابدين في كتابه دراسات في السيرة أنه سأل الدكتور الترابي عن إنكاره الحديث المتواتر بوجوب رجم الزاني، فأجاب بأنه لا يناقش الحديث من حيث السند وإنما يراه يتعارض مع العقل، وأنه يقدم العقل على النقل عند التعارض. ويقول في محاضرة بعنوان قضايا أصولية فكرية: (لابد لنا أن نعيد النظر في الضوابط التي وضعها البخاري، فليس هناك داع لهذه الثقة المفرطة فيه. والمسلمون اليوم إعجابهم بالبخاري زائد وليس هناك ما يوجب ذلك!!).

ومن العلماء الذين تتبعوا أفكاره بالتمحيص والرد، الدكتور محمود الطحان في كتابه مفهوم التجديد بين السنة النبوية وأدعياء التجديد المعاصر.

والأستاذ الأمين الحاج محمد أحمد في كتابه مناقشة هادئة لبعض أفكار الدكتور الترابي.

كلمة إلى دعاة العلمانية:

لاحظنا من خلال السرد التاريخي لتطور الفكر العلماني ودخوله المشرق الإسلامي أن العلمانية فكرة مستوردة، لا يشك في ذلك أعداؤها، ولا يماري فيه دعاتها. ومعنى ذلك أنها ليست من صميم الإسلام ولا من إنتاج المنتسبين له. فلذلك هي بضاعة نحن في غنى تام عنها، ومن الحماقة والغباء أن نستجلبها لمجتمعاتنا، لأنها وإن كانت مفيدة ومجدية للظرف الذي نشأت فيه إلا أنها ما دخلت ميداناً من ميادين الحياة إلا وأثمرت الشقاء المطبق والضياع المرير لأن أساسها قائم على إبعاد الإنسان عن فطرته وهي غريزة التدين التي أودعها الله فيه، ومن ثم تحويله لأداة مادية قائمة على الشهوات والنفعية، وقبل هذا يجب أن تفهم خصوصية الدين الإسلامي الذي يتفق كل الاتفاق مع

الطرح العلمي ولا يتعارض أو يتناقض معه، خلافاً للمسيحية التي كان جمودها ومحاربتها للعلم سبباً أساسياً لنشوء العلمانية وأن الشريعة الإسلامية سلمت من عبث العابثين وتحريف المبطلين.

وأما علمانيو العالم الإسلامي فإننا نقول لهم: إن كل حمل يتم خارج رحم الأمة هو حمل مشوه، وأن مسألة نقد الدين والتراث ليست من قبيل الثقافة العامة التي يتناولها الكتاب والمثقفون بالنقد كما يتناولون نقد القصيدة أو المقالة وإنما هي مسألة علمية تتعلق بدين الله وديانة أمة بأسرها ومن حق أي مسلم أن يرفض القبول بهذه العبارات المطلقة التي تشيع بين الكتاب والمفكرين، تحوطاً لدينه، وإن لهذه الأبحاث خطورة لا تقف عند حد الأوراق والخلل في البحث الأكاديمي وإنما تتعداه إلى التأثير في الواقع الحي المتجدد من حيث إيقاعها الخلل والاضطراب في نظرة الإنسان العربي المسلم لتاريخه الذي يمثل مستودع تجارب أسلافه ومعالم مقوماته الحضارية. وكلمة أخيرة نوجهها لعلماء الأمة وهي ضرورة قيامهم بواجب البيان في هذه المسألة لقطع الطريق على الأفكار القلقة المشوشة حتى لا تؤذي أجيالنا الجديدة لأن السبب المباشر في انتشار هذه الأفكار وشيوعها في أوساط المثقفين يرجع إلى انشغال أهل العلم عن معالجة هذه القضايا، اعتماداً منهم على أنها من المعلوم من الدين بالضرورة فلا يلزم إعادة النظر فيها.

يقول الدكتور عماد الدين خليل: في ظلال المجتمع العلماني يتمزق الإنسان بناءً على تمزق مصيره، وتزدوج شخصيته اعتماداً على الثنائية التي اصطنعها بين المادة والروح والجدران التي أقامها بين الحس والوجدان والجفاء الذي باعد به زيفاً بين عالمي الحضور والغياب بين ما هو قريب مرئي وما هو

بعيد لا تراه العيون، فتغدو طاقات الكون والإنسان والحياة وما بينها جميعاً من وشائج وارتباطات ـ تغدو في حس العلماني وتصوره فوضى يسودها الانفصال والصداء والجفاء[1].

وفي الختام أقول: ها نحن أولاء بحمد الله نمشي بثبات يقيني، واستعلاء قطعي فوق أشلاء المنهج العلماني بطرفيه الملحد الكافر، والضال المنتسب أهله إلى الإسلام، وندوس بحجج الحق فوق ركام باطلهم الآفك، ونرتفع بإباء إيماني فوق كل الشبهات التي تفتق عنها ذهن أساتذة الفكر العلماني في الغرب والشرق.

والله الهادي إلى سواء السبيل

(1) عماد الدين خليل ـ تهافت العلمانية ـ بيروت ـ 1395هـ ـ ص 81 ـ 82.

obeikandl.com